ابن مرزوق الخطيب وكتاب المناقب المرزوقية

أ. نوال بلمدني*

عرفت مدينة تلمسان بيوتات وأسر كان لها شأن عظيم بالمنطقة، وبخاصة في مجال العلم، ومن أشهرها أسرة المرازقة التي تميز أفرادها بالعلم والدراية والدين والولاية[1]، "وكانوا نزلاء الشيخ أبي مدين بالعبّاد، ومتوارثين خدمة تربته، من لدن جدهم خادمه في حياته"[2]، تركوا صيتا ذاع بالمشرق والمغرب، وخلفوا مؤلفات نفيسة، فمنهم العم والجد والأب والأبناء والأحفاد، كلهم رجال خير وعلم؛ كان أبو بكر بن مرزوق التلمساني(520هـ–594هـ) خادما للعارف الكبير أبي مدين، واشتهر محمد بن محمد بن مرزوق (629هـ–681هـ) بالعلم، إذ كان فقيها ومحدثا ومتصوفا كبيرا، توفي بتلمسان، ودفن في دار الراحة من الجامع الأعظم قرب ضريح أبي يحيى يغمراسن بن زيان، اتبع ابنه أبو العباس أحمد – والد مؤلف المناقب المرزوقية(681هـ–741هـ) منهج آبائه في طلب العلم والتصوف، ومن والده تلقى ابن مرزوق صاحب هذه الترجمة مبادئ العلم، خصوصا في مجال الفقه واللغة، ورغم ابتعاده النسبي عن مسار أسلافه خلال مرحلة شبابه المفعمة بالسياسة والرياسة، إلاّ أن تأثره بالبيئة الصوفية بقي ليظهر بصورة جلية خلال المراحل الأخيرة من حياته[3].

إن الاسم الكامل لمؤلفنا هو محمد بن أحمد بن محمد ابن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي من أهل تلمسان، يكنى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب المشرقية بشمس الدين[4]، الشهير بالخطيب[5]، وتعرّفه بعض المصادر على أنه "...طيب الحديث، مقدر الألفاظ، عارف بالأبواب، درب على صحبة الملوك والأشراف، متقاض لإيثار السلاطين والأمراء، يسحرهم بخلابة لفظه،....غاص المنزل بالطلبة، منقاد الدعوة، بارع الخط أنيقه، عذب التلاوة، متسع الرواية، مشارك في فنون من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف، فلا يعدو السداد في ذلك، فارس منبر، غير جزوع ولا هيابة..."[6].

* – أستاذة مساعدة أ في التاريخ الإسلامي الوسيط– التاريخ– جامعة معسكر.

ولد مؤلفنا سنة احدى عشرة وسبعمئة بتلمسان[7]، وقيده بعضهم سنة اثني عشر وسبعمائة[8]، ويشير ابن خلدون إلى أن مولد صاحب الترجمة –على حسب ما أخبره– كان عام عشرة وسبعمائة[9]، وكانت وفاته عام احدى وثمانين وسبعمائة[10].

أما النسب فيفيدنا عنه ابن مرزوق قائلا: "أما النسبة: محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر، ابن مرزوق"[11]، ويعود أصل أفراد هذه الأسرة إلى القيروان، وكانت مواطنهم وأملاكهم بجبل بظاهر القيروان، يسمى "ويسلات"، هاجر جدّ العائلة مرزوق رفقة أخويه، وكان ورودهم على تلمسان أيام محاصرة المرابطين لها[12]، حيث زحف جيش الأمير يوسف بن تاشفين على تلمسان سنة 468هـ[13]، واشتغل مرزوق الذي ذكره مؤلفنا بالفلاحة والحرث، وابتنى دارا بتلمسان، بالموضع المسمى بمرسى الطلبة[14]، مع العلم أن تلمسان من "أحسن مدائن المغرب ماء وهواء"[15]، "منجبة للحيوان والنبات، كريمة الفلاحة، زاكية الإصابة"[16].

المسار العلمي لإبن مرزوق: نشأ ابن مرزوق بتلمسان، وتعلم بها خلال مراحله الأولى، فقرأ على مشائخها كالشيخ أبي زيد عبد الرحمان بن يعقوب بن علي، وعلى الخطيب أبي محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي، والفقيه أبي عمر ميمون بن سعيد السرغيني، وقرأ أيضا كتاب الله على والده[17]، كما أخذ عن الشيخين ابنى الإمام، وقاضي القضاة بتلمسان أبو عبد الله ابن هدية، والشريف أبو علي حسن بن يوسف بن يحيى الحسني، والشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي المعروف بابن إسحاق الخياط وغيرهم[18]، فابن مرزوق يقول "رأيت من الأولياء في صغري بتلمسان خلائق"[19].

بعد المرحلة الأولية يستعد ابن مرزوق لخوض غمار الرحلة من أجل طلب العلم خارج تلمسان، بخاصة وأن ذلك مشهورٌ داخل بيت المرازقة؛ كانت الرحلة الأولى سنة "724هـ"، في ركب يضم عددا من الفقهاء، على رأسهم الشيخ أبو زكريا يحيى بن جدار العبد الوادي[20]، فدخل مدينة بجاية دار العلم وحضرة الفقه والدين كما يصفها[21]، فلقي بها من الأولياء أبي علي ناصر الدين المشدالي وقرأ عليه[22]، وأبو موسى عمران المشذالي، أعرف أهل عصره بمذهب مالك[23]، ثم توجه نحو قسنطينة، وسمع من عدد آخر من أعلام القضاة والحفاظ والعلماء بتونس وبجاية والزاب وتلمسان[24]، وتشير بعض المصادر إلى أن أسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم، وروى عنهم الحديث مذكرون في مشيخته المسماة: "عجالة المستوفى

المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز"[25]، ومنهم من يقدر عددهم بنحو ألفي شيخ[26].

ثم دخل تونس، ولقي من صلحائها أبا عبد الله الزبيدي، وأبي الحسن الخطاب، وغيرهم من الفقهاء[27]، وبطرابلس الخطيب أبا محمد جابر بن عبد الغفار[28].

وبثغر الإسكندرية جماعة منهم أحمد المرادي بن العشاب، وأبو القاسم ابن علي بن البراء، والناصر المنير[29]، وأبو عبد الله الفاسي، وأبو الحسن العربي، وأبو زكريا الزواوي، وغيرهم من الفقهاء[30]، ثم وصل إلى القاهرة، وأقام بها يباشر مشيختها، منهم علاء الدين الغزنوي، وجماعة من العلماء والمحدثين كقاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة [31].

واصل ابن مرزوق رحلته رفقة والده باتجاه مكة المكرمة لتأدية فريضة الحج، وكانت فرصة لمجالسة أهم المشايخ هناك، إذ جاء على لسانه ما نصه: "فأقمنا بمكة بعد وقفنا وقفة الثلاثاء، سنة كاملة، ثم رحلنا إلى المدينة، فأقمنا إلى آخر سنة ثمان وعشرين، نحج فيها كل سنة، وأدركت بها خلائق نفع الله بهم. فوقفنا يوم الجمعة، وبعد تمام الحج، توجهنا إلى بيت المقدس، فلقيت بها أعلاما"[32]، فلقي بالمدينة المشرفة العلامة عز الدين محمد أبو الحسن بن علي بن اسماعيل الواسطي، صاحب خطتي الإمامة والخطابة بالمسجد النبوي الكريم، والشيخ جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الخزرجي السعدي العبادي، وشرف الدين أبو عبد الله عيسى بن عبد الله الحجية المكي، خادم الوقف بالمسجد الكريم، ونائب الإمامة والخطابة به، والشيخ المعمر شرف الدين خضر بن عبد الرحمن العجمي، والشيخ مقرئ الحرم برهان الدين ابراهيم بن مسعود بن ابراهيم الآبلي المصري، وأبو محمد عبد الله بن أسعد الشافعي الحجة، والشيخ قاضي القضاة وخطيب الخطباء عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن جماعة الكناني[33]، ومن أهل الشام جلس إلى البرهان بن الفركاح، والشمس بن مسلم قاضي الحنابلة[34]، وغيرهم كثيرون، فالرحلة العلمية عامة أتاحت الفرصة للتلاقح الفكري ودعم الروابط الثقافية بين علماء تلمسان، ونضرائهم من حواضر المشرق والمغرب والأندلس.

وبعد هذه الرحلة العلمية، عاد صاحب الترجمة إلى المغرب سنة تسع وعشرين "729هـ" على بلاد الجريد، مرورا بمصر فأقام بتلمسان إلى سنة أربع وثلاثين "734هـ"[35]، ليشد الرحال من جديد رفقة والده إلى الحجاز، فأقام في القاهرة إلى آخر سنة ست وثلاثين "736هـ". وفي

سنة سبع وثلاثين "737هـ"، عاد إلى المغرب، فأقام بتلمسان يلازم علمائها ومشايخها حتى اكتملت شخصيته العلمية، واكتسب من العلوم ما يؤهله للخطبة، فخطب بجامع العباد[36]، لينتقل إلى قسنطينة فتونس ليعود إلى تلمسان[37]، ثم يرحل عنها سنة 750هـ نحو الأندلس وينزل عند سلطانها أبي الحجاج الذي أنزله حضرته وقلده خطابة الحمراء وجامع غرناطة، ليرحل بعدها إلى مالقة، فخطب في جامعها، ثم استدعاه السلطان أبي عنان إلى فاس[38]، فانصرف إليه ابن مرزوق "عزيز الرّحلة، مغبوط المنقلب"، وكان ذلك في أوائل سنة 754هـ[39]، وأصبح من كبار المقربين والمستشارين، ولكنه تعرّض لمحنة السجن بعد الصراع الذي عرفه البيت المريني إلى غاية سنة 764هـ، ليتجه نحو تونس ويتولى الخطابة والتدريس حتى سنة 772هـ[40]، ومن تونس كانت وجهته نحو الإسكندرية، ومنها نحو القاهرة حيث استقبل وأنزل المنزلة الرفيعة.

ابن مرزوق معلما وخطيبا: تمكن ابن مرزوق من تحصيل معارف غزيرة في شتى أصناف العلوم، وهذا ما أهلّه لأن يكون معلما، فدّرس بداية بمدرسة العباد، وهذا بعد سنة 735هـ، وهو لازال يغترف من علم ابني الإمام والآبلي، ومحطته التالية في التدريس كانت بعد رحلته إلى الأندلس، حيث درسّ بغرناطة في الفترة الممتدة من 753هـ إلى 754هـ[41]، من غرناطة ينزل إلى مدينة فاس ليتولى التدريس عند السلطان أبي عنان سنة 754هـ، وفي الفترة الأخيرة عند السلطان أبي سالم من 760هـ إلى 762هـ بعدها كانت وجهته تونس، حيث كلّفه السلطان أبو إسحاق بالتدريس بمدرسة الشمّاعين وتسمى المدرسة الشمّاعية[42]، وبقي يعلم بها من سنة 765هـ إلى سنة 772هـ، أي إلى غاية رحلته إلى الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة فكرّمه سلطانها الأشرف وولاه الوظائف العلمية ورشحه لمنصب القضاء[43]، وعينه في هيئة التدريس بأشهر مدارسها، ودرس بالشيخونية والصرغتمشية والنجمية[44].

بدأ مؤلفنا يبرز بفصاحة لسانه وبيان خطابه وجزيل عباراته، إذ تولى بعد عودته من المشرق في رحلته الثانية إلى المغرب سنة 737هـ الخطابة بمسجد العباد بتلمسان، وكان أبو الحسن قد عينه مكان عمه بعد وفاته فسمعه "يخطب على المنبر، ويشيد بذكره، والثناء عليه، فحلي بعينه، واختصه، وقربه..."[45]، ويصفه صاحب البغية قائلا: "الخطيب المصقع ذو وجاهة عند السلطان"[46]، أما إقامته فكانت بتلمسان إلى غاية سنة أربعين "740هـ"، ليرحل إلى فاس[47]، أما

عن تونس فيقول مؤلفنا: "ووليت خطابة جامع ملكها، والتدريس بأم المدارس فيها، وهي المعروفة بمدرسة الشماعين، كل ذلك تحت رعاية وملازمة لمجلس ملكها..."[48].

أما عدد المنابر التي خطب عليها فيحددها صاحب الترجمة في كتابه "المناقب المزوقية" قائلا: "لقد ارتقيت خمسين منبرا من حواضر الإسلام"[49]، ويذكر صاحب نفح الطيب أن ابن مرزوق خطب في "ثمانية وأربعين منبرا في الإسلام شرقا وغربا وأندلسا"[50]، لهذا لقبه الكثير "بالخطيب"، ومنهم أبو عبد الله المرشدي الذي ناداه "يا خطيب...كن خطيبا، أنت الخطيب"[51].

كما أشرنا سابقا أن ابن مرزوق خطب بمسجد العباد، ومدح السلطان أبي الحسن في خطبته، فقربه وجعله من خاصة مجلسه، فأصبح مؤلفنا يتعاظم نفوذه ومكانته لدى المرينيين، وسلطانهم أبي الحسن على الخصوص، وشارك معه في موقعة طريف التي انهزم فيها المرينيون سنة 741هـ، والتي قال عنها: "...ثم رحلت أيضا سنة إحدى وأربعين، فشهدت واقعة طريف في خدمة السلطان المرحوم أبي الحسن، رحمة الله عليه، وباستدعائه ثم عدت إلى تلمسان، فأقمت فيها أشهرا فاستدعاني أيضا رحمة الله عليه لخدمته؛ فأقمت في خدمته أتولى الخطابة، والنظر في الشكايات في أوقات، وألازم مجلسه وحضرته، وعاملني بما يثيبه الله عليه في الآخرة"[52]، وعلى ما يبدو أن ابن مرزوق كان يفتخر لهذه المكانة التي وصلها، الأمر الذي دفع به لتقديم تشكراته للسلطان المريني وبطريقته الخاصة[53].

كما تم تكليفه بمفاوضات مع القشتاليين، لإبرام معاهدة صلح، وفداء الأمير تاشفين بن أبي الحسن، الذي وقع أسيرا في معركة طريف[54]، وعند عودته من سفارته متجها إلى تونس، وصلته أنباء هزيمة أبي الحسن في معركة القيروان في محرم 749هـ، فانتقل ابن مرزوق من مدينة قسطنطينة صحبة زوجة أبي الحسن إلى فاس[55].

وبعد رجوعه إلى تلمسان، كلفه الأمير الزياني أبو سعيد عثمان بمهمة إبرام اتفاقية صلح مع السلطان أبي الحسن المريني، ويفيدنا ابن مرزوق بما دار من أحداث في ذلك قائلا: "رغب مني سلطانها أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمان بن يحي بن يغمراسن بن زيان، وأخوه أبو ثابت، محاولة الصلح مع السلطان أبي الحسن؛ فأقمت بتلمسان، ووجهت له، فجاء من تونس إلى الجزائر عازما على الصلح، فسعى في نقضه وفي إذايتي من باء بإثمه فثقفوني، فأقمت في

ثقافهم وسجنهم تسعة أشهر..."[56]، ثم أخرج منه ليرحل إلى الأندلس سنة 752هـ أين استقبله سلطانها بكل حفاوة.

ونظرا للشهرة التي اكتسبها، ولدهائه وثقافته الواسعة، ومهارته في خدمة الملوك، استدعاه السلطان أبو عنان المريني سنة 754هـ بعد استرجاعه تلمسان، وقربه منه حتى أصبح من خواصه ومن كبار أعضاء مجلسه، حتى أنه بعثه لتونس ليخطب له بنت السلطان أبي يحيى فردت الخطبة ووشي لأبي عنان أنه مطلع على مكانها[57]، وقد قيل لأبي عنان أن السبب في هذا الفشل هو ابن مرزوق نفسه الذي قصّر في الأمر، فثار أبو عنان ثورة لم يستطع معها أن يقبض على زمام أمره، وعاتبه قائلا: "لم تضع اليد فيها حين ذهبت لتخطبها لي؟ فقال: بنت ملك يخطبها سلطان كيف أضع يدي فيها؟ فأبقاه بسبب ذلك في الثقاف ستة أشهر"[58]، ثم أطلقه قبل موته[59].

فانغماس ابن مرزوق في شحون السياسة ودسائس البلاط، جعله يدخل السجن بعد النعيم والمجد والحظوة التي اكتسبها وقوة النفوذ، ويصف لنا الموقف الحرج الذي وضع فيه بسبب هذا الإخفاق، وبسبب كثرة المنافسين له قائلا: "...ثم رحلت صحبة السلطان أبي عنان رحمه الله تعالى إلى قسنطينة، ووجهني منها إلى تونس، وأمرني فيها بمحاولات أنتج بعضها، وخاب بعضها؛ فوجد الحسد سببا لما كانوا عاملين عليه من الطعن في جهتي، فلما عدت إلى تونس على الوجه المعروف، أدركني خدامه على مرحلة من تلمسان فثقفوني، ووصلت إلى حضرته، فحضرت بين يديه، فقابلني بالإذاية وبقيت في ثقافه إلى أن رضي، وقابل بالجميل وعزم عليه، فاخترمته المنية"[60]، وعلى ما يبدو أن الحظ لم يسعفه كثيرا أمام كثرة خصومه، ويرى أن ما حدث له من محن كان بسبب ابتعاده عن سيرة سلفه، إذ يقول: "لكن فيهم من خالف مثلي، طريق سلفه وتخلف، فدخل في نمط العمالة والولاية، لطف الله بنا أجمعين، وردنا إليه بفضله...."[61].

ولعل هذا من احد الأسباب الرئيسية التي دفعت به لتأليف كتاب "المناقب المرزوقية"، إذ يقول في ذلك ما نصه: "إن ذنوبي كثيرة، وزلاتي خطيرة، ووحاتي هذه شديدة، إلا أن اللطف أعظم، والرحمة أوسع، والكرم أكبر، وباب القبول مفتوح"[62]، كما لم يخفي مدى تأثره بالشدة التي مر بها، وهذا يتضح من خلال الأدعية التي ذكرها في هذا الكتاب، إذ نذكر منها:

"...اللهم أجرني في مصيبتي، واعقبني خيرا منها، بفضلك يا من مرجو سواه، ولا كاشف لما نزل في إلا إياه، ياحليم، يا رحيم، يا الله، وسيلتي إليك..."[63].

"اللهم ردني إليك، ودلني عليك، وارحمني يوم وقوفي بين يديك، وخلصني خلاصا جميلا وانقذ وحلتي، واسترني وذريتي، يا رحيم"[64].

"...اللهم ارجعني إليك، وعجل بتوبتي وصلاح حالتي، يا من لايعلم كيف هو إلا هو، ...تداركني بعاجل فرجك ورحمتك، واستعملني باقي عمري في خدمتك، ياالله، يا رحمان يا رحيم"[65].

وكل هذه الأمور كان والده قد حذره منها، ولم يتردد في اسداء النصح له، لكن ابن مرزوق لم يستوعب ذلك إلا بعد دخوله مجال السياسة ومخالطته لمجالس الحكام؛ ومن بين تلك النصائح يذكر: "...كان يقول لي: يا بني؟ ما لك والسلطان؟ أخوف ما أخاف عليك مخالطة السلطان. يكاد يكرر هذا الكلام كل يوم، وأنا أعجب من هذا، لصغر سني، وبعدي من هذا. فكان ما قال رحمه الله تعالى. فها أنا في بحر الوحلة مرتبط، وفي خصرها مشتبك، وبسببها ممتحن، ..."[66]، ويضيف: "يا بني. إنك تبتلى بمخالطة السلطان، فإياك أن تضر أحدا، وأنا قد سألت الله ألا يضرك أحد إلا وترى فيه الأمل، ويعجل الله عقوبته، وتكفلت لك بذلك"[67].

ويوصيه أيضا قائلا: "يا بني. أوصيك بتقوى الله وبالخمول، وإياك والدنيا، واشتغل بنفسك، وتسبب بالحراثة والتجارة، ولا تترك طلب العلم والتمسك به، وعليك بالاقتصاد في أحوالك، وقد عرفت طريق من سلف لك، وإياك وخطة القضاء، فإنك إن قبلتها مختارا كنت غير راض عنك، وإذا دعيت إلى الخطابة فاقبل...إلى غير ذلك مما أوصاني به. وتركت الجميع، فكيف لا أعاقب بمثل هذه الشدائد "[68].

مؤلفات ابن مرزوق: ترك الخطيب ابن مرزوق مصنفات في شتى أصناف العلوم والفنون، الأمر الذي جعل المهتمين بتراثه يعتبرنه شاهدا استثنائيا على عصره، وأن مؤلفاته هي أصدق مرآة للمجتمع الذي عاش فيه[69]، ونذكر منها ما يلي:

– شرح الشفا في التعريف بحقوق المصطفى لم يكمل، عجالة المستوفي المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز، من أئمة المغرب والشام والحجاز، شرح الجامع الصحيح للبخاري وسماه المتجر الربيح والمسعى الرجيح، لم يكمل، إيضاح السالك على ألفية ابن مالك في النحو، تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام[70].

– المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا.
– المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، هذا المؤلَّف مكمل للمسند، ويمكن من خلاله رسم صورة حول الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية ببلاد المغرب عامة، والمغرب الأوسط خاصة.

تأليف كتاب المناقب المرزوقية: قبل الحديث عن محتوى الكتاب، وجب التعرض إلى تاريخ التأليف والدافع إليه، فبعد عرض الأخبار والمادة التاريخية التي كنا قد أشرنا إلى أهمها من خلال الصفحات السابقة، يفيدنا صاحب المناقب فيما يخص تاريخ التأليف، وهذا بعد الدعاء والصلاة على النبي الكريم وبركة الأولياء فيقول: "...ومن اشتمل عليه هذا المجموع منهم؛ وليكن هذا آخره فقد شغلنا عن استفاء الغرض ما دهيت به من الكرب المتصل، دفعه الله... وذلك في أوائل ثلاث وستين وسبعمائة "[71]، أي انتهى من تأليفه في أوائل سنة 763هـ.

أما مكان التأليف– داخل السجن أم خارجه– فلم يشر إليه بطريقة مباشرة، لكن سلوى الزاهري محققة المخطوط، ومن خلال القرائن التي تعتمد عليها تشير إلى أن ابن مرزوق شرع في تأليف مناقبه مباشرة بعد إيداعه السجن، أو على أكثر تقدير خلال الأشهر الثلاثة التي تلت حبسه[72]، مع العلم أن المصادر لا تشير إلى المدة التي قضاها ابن مرزوق مسجونا آنذاك، ما عدا ما تشير إليه ماريا خيسوس بيغرا[73].

وتذهب المحققة إلى أنه ثمة مؤشرات قد تدل على أنه سطر كتابه وهو بالسجن، إذ أنه يشير إلى معاناته، لِمَا كان عليه من الثقاف قائلا: "اللهم إني رفعت أمري إليك، وعولت في إصلاح حالي عليك، يا من لا يعجزه شيء، فأنت موجد كل شيء، القادر على كل شيء، المتصرف في كل شيء، بإيجادك لكل شيء، وقدرتك على كل شيء، وتصرفك في كل شيء، خلّصني مما أنا فيه، وانقذ وحلتي وذريتي، إنك على كل شيء قدير، يالله، يالله، يالله، يا عماد من لا عماد له، ويا سند من لا سند له، ويا ناصر من لا ناصر له، وياراحم من لا راحم له، يا ذا الجلال والإكرام، يالله، يالله، يالله، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليما"[74]، ونشاطرها الرأي وهذا اعتمادا على نصوص أخرى ذكرها ابن مرزوق، منها "يا من لايبلغ قدرته إلا هو، تداركني بعاجل فرجك ورحمتك..."[75]، وفي صفحة أخرى يقول بتأثر بالغ: "ورأيت بحول الله، أن أصل بذكر الجدّ،... ومن عاصره وعاشره من صلحاء وقته، وعلماء زمانه على سبيل الإختصار، وكذلك لمولاي الوالد رحمه الله، ذكرا جُمليًا، لأن معرفة

المواليد والوفيات، وتعيين الأشياخ وغير ذلك مما يجب ذكره، لم أجد لمعرفة ذلك سبيلاً، لما أنا عليه من الثقاف، ومفارقة ما كسبته من الكتب وكتبته، ومفارقة جميع الأهل وذهاب سائر ما ملكته، وأنا في حالة لا يعلمها إلا خالق الخليقة ومولاها ...."[76].

وبعد خروجه كانت وجهته الأندلس، حيث شارك في احتفالات المولد النبوي لسنة 763هـ التي شهدها البلاط الغرناطي، وأنشد بين يدي السلطان النصري قصيدة بمناسبة المولد النبوي الشريف، تتكون من مائة وسبعة عشر بيتا[77]، يؤكد أبو الحسن علي، نجل لسان الدين ابن الخطيب، أنه حضر إنشادها ليلة الميلاد الشريف في التاريخ المذكور[78].

أما دافع التأليف فيكمن في الاحتفاظ بالسيرة الذاتية لسلفه الصالح، الذين كانوا أهل زهد وأصحاب كرامات، وتميزوا بالقيم والمبادئ الدينية، ونبذ حياة الدنيا وزينتها، هذا الطريق الذي انحرف عنه ابن مرزوق ودفع ثمنه غاليا، ويتضح ذلك من خلال قوله: "وكان لي سلف صالح متجرد لطريق الآخرة ومرتفع بهمته الكبيرة عن زينة الدنيا الدنية الفانية، كما أنه كان لي قبل التوغل في هذا المقام، الذي سبق القضاء الذي لا محيد عنه ولا انفصام..."[79]، وأراد أن يحتفظ بسيرة سلفه وما كان له من انكباب على التحصيل العلمي قبل الارتماء في أحضان السلطة، ويذكّر أبناءه بذلك فيقول: "ورزقت أبناء صغارا لا يعرفون ولا يُعرفون، ولا يألفون ولا يُؤلفون، ورأيتهم أنهم إنما عرفوا بما عرفتُ به من الظهور الدنيوي، وفي الذي تنقطع المعرفة بانقطاعه، تأكد عندي أن أثبت لهم من ذلك ما يعرفون به من سلف لهم"[80].

فدراسة سلالة المرازقة ومعرفة جذورها، وما أنجبته من أعلام، لا يمكن دون الإطلاع على هذا المصدر، ويمكن أن نعتبره كتاب تراجم أيضا، لأنه كثيرا ما يورد المؤلف أسماء وترجمة شيوخ والده وجديه.

إن ما يلفت الانتباه في كتاب "المناقب المرزوقية" هو مصدر المادة التاريخية التي اعتمدها، والتي كانت في أغلبها روايات شفوية من مصادر مختلفة، فأغلب ما دونه هو رواية لأحداث عايشها، أو سمعها أو شارك فيها، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

"أخبرني شيخنا أبو العباس ابن القطان، وعمي رحمه الله..."[81].

"أخبرني والدي، وعمي، وابن القطان، وغيرهم..."[82].

"أخبرني جماعة لا أحصيهم كثرة..."[83].

"أخبرتني خالة مولاي الوالد، وجماعة من العجز اللائي أدركت....."[84].

"حدثني غير واحد من أهل تلمسان وأهل العباد..."[85].

"حدثني شيخنا الفقيه الفاضل الكاتب.... أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي..."[86].

"حدثني الفقيه الإمام شيخنا، أبو عبد الله الآبلي..."[87].

محتوى الكتاب: موضوع الكتاب سيرة سلف ابن مرزوق ونسب أسرته وسيرة أجداده وأعمامه، وسيرته الذاتية إلى غاية 763هـ، متعرضا في ذلك إلى الرحلة السياحية والروحية والعلمية التي قام بها رفقة والده إلى الزوايا المشرقية للقيام أمام شيوخها، والتزود من معارفهم، وكذلك الرحلة في طلب العلم للاستزادة من علوم ذلك العصر في المساجد والمدارس بمدينة القاهرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ولقاء كبار الشيوخ والعلماء والتتلمذ عليهم، والإجازة على أيديهم، كما يذكر أهم ما حدث له سواء بالمغرب أو المشرق.

أما تنظيم الكتاب فلم يعطيه المؤلف أهمية كبيرة، إذ تشير سلوى الزاهري محققة المخطوط إلى أن العمل كتب على عجل، ولم يثبت عناوين الفصول ماعدا المقدمة والفصل الأول الذي خصصه للحديث عن "النسبة والقبيل الذي يرجع إليه"، ولم يُعنْون حتى الباب الذي خصصه لوالده أبي العباس أحمد ابن مرزوق، وهو أطول باب في الكتاب، وقد اختلف طول الفصول، فهناك ما لم يتجاوز الفقرة الواحدة، في حين أن هناك من الفصول ما زاد على عشر صفحات، واعتمادا على ترتيب المحققة يمكن تقسيم الكتاب إلى أربعة أبواب رئيسية، تندرج تحتها فصول متعددة، وهذه الأبواب هي:

الباب الأول: في النسبة والقبيل الذي يرجع إليه في فصلين.

الباب الثاني: يتناول حياة جده لأبيه محمد ابن مرزوق المتوفى سنة 681هـ في عشرين فصل متفاوتة الطول.

الباب الثالث: يتناول فيه الحديث عن أبيه أحمد المتوفى سنة 741هـ، وهو أكبر أبواب الكتاب وأطولها من الناحية التاريخية، ويضم ثمانية عشر فصلا.

الباب الرابع: خصصه للحديث عن جده لأمه إبراهيم بن يخلف التنسي المتوفي سنة 680هـ في اثني عشر فصلا.

الخاتمة: خصصها لترجمته الذاتية متناولا في ذلك مولده، نشأته، رحلته، ومن لقيه من علماء وفقهاء وأولياء صالحين*.

لا تقل قيمة "المناقب المرزوقية" عما ألف خلال تلك الفترة الزمنية–القرن 8هـ– لتاريخ المغرب الإسلامي، بخاصة وأنه يؤرخ لسلفه ومن عاصرهم من السلاطين والعلماء والأولياء مع الاستطراد في بعض التفاصيل والدقائق عن أسرته ومجتمعه، على العموم هو يزودنا بمعلومات، ومادة علمية جديدة عن التاريخ الاجتماعي والعادات اليومية والثقافة الصوفية لأعلام تلمسان، وما تعلق بشؤون الحياة اليومية من المأكل والمشرب والملبس الخاص بفئة العلماء والمشايخ، وبخاصة المتواجدين بتلمسان، حاضرة المغرب الأوسط، والتي وصفتها بعض المصادر على أنها دار العلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب الإمام مالك"[88]، فهو يعكس لنا البعد السياسي والثقافي والاجتماعي، وكذا الديني لبلاد المغرب.

ومن النصوص الواردة في الكتاب، تلك التي تصف طابع العلاقة بين أفراد المجتمع، المعرفون بالخير والأدب[89] كقوله: "...وكان –أبو زيد عبد الرحمن بن النجار– يتصدق في كل جمعة على ضعيف ومستتر وسائل بالقمح والدراهم، حتى لقي الله عزّ وجلّ على هذه الحالة، وكان يكسو جماعة من أهل الخير كل سنة، ويكسو عيالهم..."[90]، وكان "وجيها سريا موسعا عليه، كثير الصدقات وأعمال البر، له جرايات على الطلبة وأهل الدين والخير"[91].

أما عن العادات والتقليد المعروفة داخل المجتمع فيقول: "وحدثني والدي وعمي وخالتهما أن سيدي أبا زيد عبد الرحمن بن النجار،...لما صاهر إليه بابنته– أي زوج ابنته لأبي عبد الله ابن مرزوق توفي 681هـ– وهي جدتي أم والدي، أخرج لها حليا كثيرا وفرشا، وغير ذلك... وأخبرتني خالة مولاي الوالد انه عمل لكل بنت من بناته، وكنّ جملة، حليا بألف دينار من الذهب، عدا ما جعل لهن من الفرش والثياب؛ وأعطى لكل من بنيه نحو ذلك"[92]، أي هنا إشارة لجهاز العروس التلمسانية الذي ميزها عن غيرها من عرائس المغرب الأوسط بتكالفه الباهظة، وهي عادة معروفة لحد الآن.

كما ساعدت التراجم التي قدمها على رسم صورة عن التاريخ الاقتصادي من خلال النشاط الحرفي والتجاري والتواصل الحضاري بين حواضر المغرب الإسلامي، وبخاصة بين تلمسان وفاس، ومنها ترجمة الشيخ "أبو العباس بن القطان" الذي كان يتسبب بالخياطة وبالسفر أحيانا[93]، ومارس التجارة يبيع ويشتري، وينقل ابن مرزوق على لسانه ما نصه: "فخرجت مسافرا إلى فاس، ثم إلى سبتة، فبعت واشتريت، ولم أغب إلا مدة، ثم جئت بأحمال البز بين يدي من المتاع السبتي، قال: فبعت حتى سئمت، ووسع الله علي من حيث لا أشعر... فأمرني بالسفر

إلى بجاية، فحملت بعض المتاع، وبعت واشتريت متاعا، وجئت به، ففتح علي واتسع حالي، وكثر مالي...."[94]، وكانت الخياطة مصدر عيش لكثير من الأولياء، منهم "الشيخ أبو إسحاق ابراهيم بن علي الخياط"، وكانت له حانوت يجلس فيها لذلك[95].

كما كانت تلمسان "دار مملكة يعمل فيها من الصوف كل شيء بديع من المحرّرات والأبدان وأحاريم الصوف والسفاسير والحنابل المكلكلة وغير ذلك. ولقد يوجد فيها كساء كامل وزنه تسع أواق ونحوها"[96]، وهذه الصناعة عرفت نشاطا كبيرا بسبب توفر المادة الأولية، والحرف المكملة لها كالصباغة، وكان ابن النجار سابق الذكر "يحترف بإقامة عمل الحاكة من الصوف الرفيع، التي كانت تلمسان تختص به، واختص هو بذلك، فكانت له تربيعات بموضعه من درب شاكر، وكان أكثر هذا الدرب له ولعماله وخدامه"[97]، حتى أن ملوك افريقية والمغرب كانوا يلبسون ما كان يعمل بتلمسان من رفيع الصوف، لاختصاصها بذلك[98] حتى يحيى ابن خلدون يصف هذه الحرفة كابن مرزوق فيقول: "...غلب تكسبهم الفلاحة وحوك الصوف يتغايون في عمل أثوابه الرقاق، فتلفي الكساء أو البرنس عندهم من ثماني أواق، والأحرام من خمس، بذلك عرفوا في القديم والحديث ومن لدنهم يجلب إلى الأمصار شرقا وغربا"[99].

ويعطينا في صفحات أخرى صورة عن تأثير الكوارث الطبيعة على المجتمع فيقول: "وكان حفيده سيدي الحاج يوسف بن يحيى بن يوسف، من إخوان والدي وعمي وأصحابهما. وكان من خيار الصلحاء. وكان له أولاد انقرضوا وأولادهم، والله أعلم، في هذا الوباء الذي كان في عام خمسين ونحوه؛ ففيه انقرض وتغيرت الأحوال"[100]، فهذا يدل على انتشار فترات جفاف، والتي تؤدي بالضرورة إلى ظهور أوبئة، هذه الأخيرة نتيجة حتمية لفترات القحط والمجاعة التي عرفتها المنطقة، والتي وجدت قابلية لاستفحال الأمراض والأوبئة التي ابتلي بها إنسان العدوتين[101].

أما فيما يخص التبادل التجاري بين أقطار بلاد المغرب، فيفيدنا صاحب المناقب المرزوقية قائلا: "حدثني عمي، رحمه الله تعالى، وقد ذكر اتساع حاله– أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن النجار– أن قافلة وردت تلمسان من تونس، وكانوا يجلبون ثياب الكتان، ويحملون ثياب الصوف، قال فباعوا واشتروا، وأكثروا الشراء من عنده، وخرجوا مسافرين لتونس"[102].

كما يشير ابن مرزوق من خلال مصدره "المناقب المرزوقية"، لحالة التفكك السياسي التي عرفتها بلاد المغرب، مع تسليط الضوء على بعض الأحداث، كتلك التي وقعت في المغرب الأوسط، ومنها حصار تلمسان الطويل الذي بلغ حوالي تسع سنين، والتدخل المريني، كما يذكر وقائع أخرى، والتي تفصح عما كانت عليه الأحوال في تلمسان وغيرها، بخاصة وأن عصر المؤلف (ق8هـ) تميز بالفوضى وعدم الاستقرار بسبب تدهور الأوضاع الأمنية، كموضع مسجد إيلان الذي يشير إليه وإلى ما كان يطلع منه كل يوم من حمل للبضائع من عمل الصوف، ثم يقول عنه: "فانظر هل تجد اليوم في ذلك الموضع، أو ما يجاورهم، عمارا، أو في البلد كلها ما يشترى به بأقل عدد، فسبحان مبيد الجميع"[103]، دون أن يهمل الأنشطة الدينية والثقافية لفقهاء تلمسان وفاس، وانتشار ظاهرة التصوف، وما كان لرجالاته من أدوار داخل المجتمع، وعلاقاتهم بالسلطان وأعوانه، وكذا سيادة بعض التقاليد والعادات، كزيارة الأضرحة والتبرك بها، خاصة في فترات المحن والمجاعات.

كما يقدم معطيات حول أسماء المنشآت العمرانية لبلاد المغرب عامة وللمغرب الأوسط خاصة، كالأبواب (باب الجياد، باب الدرب، باب العقبة...)، الحارات والدروب (حارة الرماة، درب ملالة، درب شاكر)، وغيرها من المنشآت ذات صلة بالجانب الاقتصادي من تجارة وزراعة وصناعة.

ومن خلال الوقفة السريعة مع مشواره العلمي والسياسي، تتجلى لنا شخصيته العظيمة التي لعبت دورا ثقافيا كبيرا، حيث شغلت في المغرب مناصب سامية لم تكن تسند إلا لمن برهن على كفاءة ومقدرة علمية كبيرة، كما لعبت إلى جانب ذلك، دورا خطيرا في ميدان السياسة والتدبير.

هكذا نرى أن الخطيب بن مرزوق كان من أعظم الشخصيات المغربية التي ربطت بين دول المغرب العربي والمشرق برباط ثقافي متين، فهو نموذج من نماذج الهوية المغربية في حقبة معينة من تاريخها، لقد أخذ ابن مرزوق من هذه البيئة وأعطاها، واتصل بعلمائها وفقهائها، فأفاد واستفاد منهم قبل أن يغادرها بصفة نهائية إلى الجناح الآخر من العالم الإسلامي ليفيد هناك أيضا بعلمه وثقافته وتجربته في الحياة.

شجرة نسب المزارقة نقلا من مقدمة كتاب المسند...ص16:

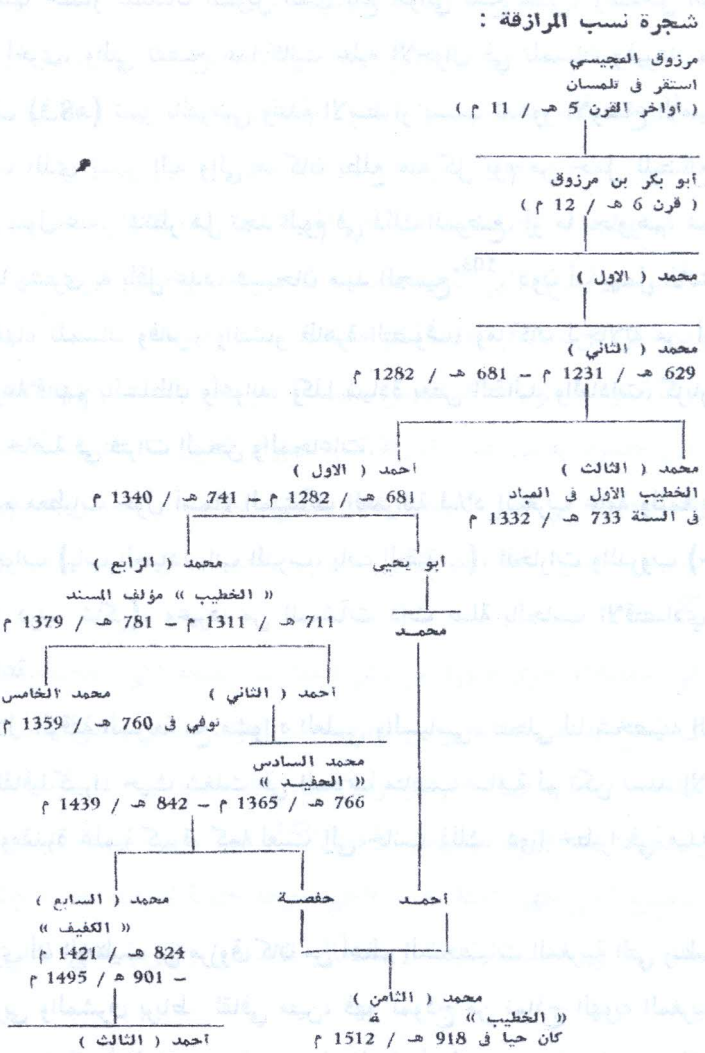
شجرة نسب المرازقة :
مرزوق العجيسي
استقر في تلمسان
(أواخر القرن 5 هـ / 11 م)
أبو بكر بن مرزوق
(قرن 6 هـ / 12 م)
محمد (الاول)
محمد (الثاني)
629 هـ / 1231 م – 681 هـ / 1282 م
محمد (الثالث)
الخطيب الأول في العباد
في السنة 733 هـ / 1332 م
احمد (الاول)
681 هـ / 1282 م – 741 هـ / 1340 م
ابو يحيى
محمد (الرابع)
« الخطيب » مؤلف المسند
711 هـ / 1311 م – 781 هـ / 1379 م
محمد
محمد الخامس
احمد (الثاني)
توفي في 760 هـ / 1359 م
محمد السادس
« الحفيد »
766 هـ / 1365 م – 842 هـ / 1439 م
محمد (السابع)
« الكفيف »
824 هـ / 1421 م
– 901 هـ / 1495 م
حفصة
أحمد
محمد (الثامن)
« الخطيب »
كان حيا في 918 هـ / 1512 م
أحمد (الثالث)
« حفيد الحفيد »

الهوامش:

1– مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تعليق عبد المجيد خيالي، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ص340.

2–ابن خلدون عبد الرحمان: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، تحقيق ابن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م، ص60– المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ج5، دار صادر، بيروت، ط1، 2004م، ص242، ابن قنفذ القسنطيني: أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق أبي سهل نجاح عوض صيام، دار المقطم، القاهرة، ط1، 2001م، صص140–141.

3– التنبكتي أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ص451 وما بعدها.

4– لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة: تحقيق د. يوسف علي طويل، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ص75– ابن فرحون المالكي: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، ج2، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط2، 2005م، ص228.

5– التنبكتي: المصدر السابق، ص450– أحمد التادلي الصومعي: المعزى في مناقب أبي يعزى: تحقيق علي الجاوي، 1996، ص261.

6– لسان الدين ابن الخطيب: المصدر السابق، ص75، ابن فرحون، ج2، ص229.

7– ابن مرزوق التلمساني: المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1، 2008م، ص298– يحي ابن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ج1، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980م، ص115.

8–ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، ص298

9– ابن خلدون: المصدر السابق، ص61.

10–مناقب أبي يعزى: ص261–ابن خلدون: نفس المصدر، ص199

11–المناقب المرزوقية: ص145.

12– المصدر نفسه، ص146.

13–البيان المغرب ج4، ص29.

14– ابن مرزوق: مصدر سابق، ص147.

15– المقري: المصدر السابق، ص133.

16– المقري: نفسه، ج7، ص135.

17–ابن مرزوق: المصدر السابق، ص298– ص300.

18–المقري: مصدر سابق، ج5، ص395.

19–ابن مرزوق: المناقب، ص300.

20–المصدر نفسه: ص301.

21–نفسه: ص302.

22–نفسه: ص301– المقري: مصدر سابق، ج5، ص395.

23– التنسي محمد بن عبد الله: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان –مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد، المكتبة الوطنية الجزائر، 1985م، ص141.

24–لسان الدين ابن الخطيب: المصدر السابق، ج3، ص76.

25–ابن فرحون: الديباج المذهب، ج2، ص229.

26–ابن فرحون: المصدر السابق، ص231– مخلوف: المصدر السابق، ص340–341.

27– ابن مرزوق: المناقب، ص302– المقري: المصدر السابق، ج5، ص395.

28–المقري: نفسه، ج5، ص395.

29–نفس الصدر: ص395.

30–ابن مرزوق، مصدر سابق، ص303.

31–نفسه: ص304.

32–نفسه: ص304.

33–لسان الدين ابن الخطيب: مصدر سابق، ج3، ص76.

34–المقري: مصدر سابق، ج5، ص395.

35– ابن مرزوق: مصدر سابق، ص304.

36–ابن مرزوق: مصدر نفسه، ص304– التنبكتي: المصدر السابق، ص451.

37–ابن مرزوق: نفسه، ص309.

38–نفسه: ص307– التنبكتي: مصدر سابق، ص452– المقري: مصدر سابق،ج5، ص403.

39–لسان الدين ابن الخطيب: مصدر سابق، ج3، ص77.
40–المقري: مصدر سابق، ج5، ص408.
41–المصدر نفسه، ج5، ص392.
42– الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م، ص24، 32، 17.
43– التنبكتي: مصدر سابق، ص452.
44– المصدر نفسه: ص453.
45– ابن خلدون: مصدر سابق، ص 61.
46– يحي ابن خلدون: مصدر سابق، ص115.
47– ابن مرزوق: المناقب، ص304 .
48– المقري: مصدر سابق، ج5، ص408.
49– ابن مرزوق: مصدر سابق، ص139– 140.
50– المقري: مصدر سابق، ج5، ص 415.
51– ابن مرزوق: مصدر سابق، ص269.
52– نفسه: ص295.
53– نفسه: ص305. ابن مرزوق: المسند، ص92.
54–ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1981، ص467، 495.
55–ابن مرزوق: المناقب، ص305– 306.
56–نفس المصدر، ص307.
57–التنبكتي، مصدر سابق، ص451.
58–الزركشي: مصدر سابق، ص98.
59–التنبكتي: مصدر سابق، ص451.
60–المناقب المرزوقية: ص309– الزركشي: مصدر سابق ص97.
61–ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، ص 174.
62–المصدر نفسه: ص198.
63–نفسه: ص240.
64–نفسه: ص270.
65–نفسه: ص238.
66–نفسه: ص240.
67– نفسه: ص252.
68– نفسه: ص252.
69–د. سلوى الزاهري: المناقب المرزوقية لإبن مرزوق التلمساني، مجلة عصور، جامعة وهران، عدد 6– 7، جوان ديسمبر 2005، ص174.
70–التنبكتي: مصدر سابقن ص455. رضا كحالة: معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، دمشق، 1975م، ص748.
71– ابن مرزوق: مصدر سابق، ص311.
72–نفسه (مقدمة المحققة): ص115 وما بعدها.
73– ابن مرزوق: المسند، ص28.
74– ابن مرزوق: المناقب، ص221.
75– المصدر نفسه: ص238.
76–نفسه: ص143.
77–المقري: المصدر نفسه: ج5، ص397– ص402.
78–المصدر نفسه: ص397 .
79–ابن مرزوق: المناقب، ص140.
80– المصدر نفسه: ص140.
81– نفسه: ص150– 153.
82–نفسه: ص 156 وغيرها.
83–نفسه: ص151.
84–نفسه: ص160.

85–نفسه: ص163.

86–نفسه: ص292.

87–نفسه: ص296.

*أنظر تفاصيل أكثر في مقدمة المحققة، ص98– 100.

88–البكري: المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ص260– مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر، المغربية الدار البيضاء، ص177.

89–الزهري: كتاب الجعرافية: تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، الظاهر، د/ط، د/ت، ص114.

90–ابن مرزوق: مصدر سابق، ص 163.

91–المصدر نفسه: ص188.

92–نفسه: ص 163.

93–نفسه: ص161.

94–نفسه: ص162.

95– نفسه: ص180.

96–الزهري: مصدر سابق، ص113.

97–ابن مرزوق: المصدر السابق، ص188– 189.

98– نفسه: ص189. ابن مرزوق: المسند، ص129.

99– المصدر السابق، ص92.

100–ابن مرزوق: مصدر سابق، ص187.

101–د. البياض عبد الهادي: الكوارث الطبيعية الطبيعة وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق6– 8هـ /12– 14م)، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2008م، ص43.

102–ابن مرزوق: مصدر سابق، ص190.

103–نفسه: ص190.